# فى منظار «الخفيف»

للأستاذ على الطنطاوى

لم يعلم أحد لِمَ لَمْ يكتب الصديق النبيل الأستاذ محمود الخفيف فى العدد الماضى من «الرسالة»، ولم يعلم هو من الأمر إلا أنه فقد منظاره فجأة، ثم وجده كما فقده فجأة، لم يدر أين ذهب ولا كيف أتى، ولم يعرف سرّ المسألة إلا أنا، لأنى سرقت «المنظار» من جيبه لما زارنى فى «الرسالة» فى الأسبوع الماضى، ورددته إلى جيبه لما مرّ بى أمس، وقد كان عرض علىّ أن يعيرنيه لما رأى رغبتى فيه، ولكنى خشيت (وسوء الظن عصمة) أن يفسده أو يصنع به شيئاً يمنعنى من الاستمتاع به، كيلا أعود إلى طلبه منه، فآثرت أن آخذه على حين غفلة منه لأستعمله صحيحاً غير فاسد، ثم إن السرقة أخت الاغتصاب؛ وقد نصّ (الشاعر) على أن:

من أطاق التماس شىء غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

والشعراء أئمة الأدب، ولا يستطيع «مقلد» مثلى مخالفة نصوص «الأئمة» ... لذلك سرقت «المنظار»، ولكنى لم أرَ به مثل تلك الصور الفنّية الكاملة التى كان يراها الأستاذ محمود، وإنما رأيت ... اسمعوا ماذا رأيت:

***

وضعت «المنظار» على عينى، وخرجت به من الدار، وكنت على موعد مع الأستاذ نهاد القاسم(1) لنزور جامع محمد على، وسرت أنظر إلى بعيد، فلم أخط خطوات حتى أحسست برجّة فى جسدى، وألم فى ركبتى وقدمى، وإذا أنا قد سقطت فى حفرة لم أنتبه لها.

وأقبل المارة يخرجوننى ويسألوننى كيف وقعت؟!

قلت: كما وقع الفلكى الذى كان ينظر فى النجوم ومسالكها، ويدقّق فى حركاتها وسكناتها، ويعمى عما تحت قدميه، وكما (يسقط) الكاتب الذى يتكلم فى الفلسفات العليا، ويغفل عن أدواء أمته وأمراضها، والشاعر الذى يحلّق فى سماوات الخيال، ويدع أمته تتمرغ فى حضيض الشقاء ...

وتركتهم يعجبون من هذا الكلام الذى حسبوه كلام مجنون ... وسرت حذراً ... أنظر حولى كيلا ألدغ مرتين من جحر واحد، فأكون شراً من الحمار، لأن الحمار إن سقط فى حفرة مرة، يجتنبها فلا يسقط فيها أخرى، والإنسان (الذى يؤمن به أخونا الأستاذ خلاف) يسقط فى الحفرة الواحدة خمسين مرة، ثم لا يجتنبها ولا يبتعد عنها ...

ونظرت فى «المنظار» فلم أر فى وجهى ... إلا سوءات مكشوفة و«أوساخاً» ظاهرة، وبلايا من هذه البلايا ... فكدت من غضبى أكسر هذا «المنظار» المسحور الذى ينظر فيه الأستاذ محمود فيرى «زهرتىْ» الوزارة، ويبصر غادة «الحمار الآخر»؛ وأنظر أنا فلا أرى إلا الأوساخ والسوءات، ورفعته عن عينى، وأنعمت النظر ... فإذا الذى أراه حقيقة، كنت أمرّ بها فلا أنتبه لها، لتعودى عليها، وتنبهت لها الآن لما ركبت على عينى «المنظار»، وهى أن الطريق الذى أسلكه كل يوم من دارى إلى جسر الملك الصالح وأحسبه نزهاً جميلا، قد فاض بالأقذار من الجانبين، فمن هنا هؤلاء الناس من الرجال: الشيب والشبان، والأولاد: البنات والصبيان، والنساء أحياناً ... (حتى النساء!) يدعون جميعاً بيوت الطهارة وهى أمامهم: فيها الماء، وعليها الحارس، وفيها الستر والنظافة، و«يقضون حاجاتهم» على طول «الشطّ» أمام الناس، ومن هناك البنات المصريات فى آخر الشارع، والأولاد المصريون فى أوله، يدعون جميعاً المدارس المصرية الطاهرة النظيفة، ويقصدون هاتين المدرستين الإنكليزيتين، يفتحون أدمغتهم للانكليز وصنائعهم من أصحاب الأغراض والحاجات، ليحققوا فيها أغراضهم، و«يقضوا حاجاتهم» ويجعلوها عشّاً لكل وباء وكل مرض، يضعف الوطنية، ويؤذى الدين. وإذا طهر الشط من أقذاره الكناس، ورشاش (الدالين)(1)، فلن يطهر البلد من أقذار هذه المدارس، إلا أن تكنسها الحكومة من أرض مصر، وتلقيها وأهلها فى البحر ...

وركبت الترام وأنا مغيظ مما رأيت محنق، فرأيت و«المنظار» على عينى، ما سلاّنى وسرّى عنى، رأيت أمامى وجهاً حلواً، دقيق القسمات، نظيفاً لم تنزل ساحته الأصباغ، ولامسته يد

(1) المستشار الاستئنافى فى دمشق وزميلى فى البعثة الثقافية فى مصر.

(1) أى الـ (دال — دال): (D.D.T).

التجميل ، ولكن جمّله ربه ، وصبغه بصبغته ... ومن أحسن من الله صبغة ؟ فيه عينان زرقاوان ، وفم متجمع مستدير ناضج الشفتين ، فوقه شعر أشقر ، لا هو بالطويل المسترسل ، ولا هو بالقصير المحلوق ، وسوالف ليست مقطوطة كسوالف الرجال ، ولا مطلقة كسوالف النساء ، على جسم قد غطته سراويل سابغة ، ورداء له أكمام طويلة ، تبرز منها يد بضّة ملفوفة ، ما تعرف أهي يد بنت مدلّلة ، أم يد غلام مترف ، والعمر في نحو الخامسة عشرة ، فجعلت أتساءل حائراً : هل هذا شاب أم فتاة ؟ وحاولت أن أجد علامة دالّة ، أو أمارة ظاهرة ، فعدمتُ العلامات ، وخفيت عني الأمارات ، وطالت حيرتي حتى لقد هممت أن أمدّ يدي فألتمس ... ومنعني أن أفعل أني استحييت وخفت العواقب ، وأن الشاب قام ، أو أن الفتاة قامت ، فنزل ، أو نزلت ، وكل راكب في الترام يتساءل مثل تساؤلي ، ويحار مثل حيرتي !

وركب مكانها ( أومكانه ) ، امرأة فرنجية كأنها من لطافتها ... ( سيد قشطة ) تجر وراءها ثلاثة : ولدين كالخنزيرين السمينين ، لا يعرف طولها من عرضهما إلا بالقياس ، وعجيزة مثل كيس التبن ... وصلت هي إلى المقعد ، ولا تزال العجيزة تصعد السلم ، ثم جلست بين الرجلين على طرف المقعد ، وهي تلهث كأنها قاطرة حلوان ... ثم اندفعت في المقعد فضغطت الرجلين ، فأدخلت واحداً في الزاوية من هنا ، وواحداً من هناك ، وأقعدت الخنزيرين ( أي الولدين ) على الركبتين ، وتنفست الصعداء بعد هذا الجهد ، فكانت نفخة مفاجئة أطارت جريدة كانت في يد الراكب أمامها ...

وأقبل الجابي ( الكمسارى ) وهو رجل أسمر طويل ، عبوس الوجه ، متين البناء ، له شاربان كشاربي مراكب ، فقال لها :

— فلوس !

فدت إليه يدها بثمانية مليمات ، كأنها تمدها إلى سائل ، فقال لها :

— هنا ريعو ، خمسة عشر مليما .

فرفعت إليه هذه الكرة المفلطحة التي تسمى في جغرافية جسمها ( رأساً ) ، ولوت شدقها ، وصعّرت خدها ، ومدت شفتها ، حتى صار وجهها مثل القرعة اليابسة ، وقالت :

— أنا ما بياطي ، أنا مش آهد كويس .

— خمسة عشر مليما يا مدام .

فغضبت ، وصاحت :

— انتي مسريين ما بسير لتيف أبداً ، بيتَّم متوحش !

فأسرعت أنزع « النظار » لألعن أباها ، ومن جاء بها إلى مصر ، ولكني وجدت ( الكمسارى ) قد سبقني إلى هذه المكرمة ، ورأيته قد انقلبت عيناه في أمّ رأسه ، واصفر وجهه حتى صار كقشرة الليمونة ، وارتجفت شواربه ، ولكنه تماسك وتثبت ، وصفّر فوقف(1) الترامَ ، وقال لها :

— لو كنت رجلا لرأيت ، ولكنك امرأة ، ونحن لا نمد أيدينا إلى النساء ، فتوي انزلي ...

وأكبرت نمله ، وتمت أهنئه وأصافحه ، ولولا خشونة خدّه ، وأنها لا تطيب قبلته ، لوثبت عليه فقبلته ، وتمنيت أن يكون كل مصريّ مثله ، وحمدت للنظار ما أرانيه ، ولكن الفرصة لم تطل ، فقد فتح الباب ودخل منه سائل(2) كأنه في جسمه وفي عينيه بشار ابن برد ، عليه ثياب لو أن للقذارة ( جائزة ) عالية ، لنال بها الجائزة ، يغني بصوت تخاله — والعياذ بالله — صوت ثلاثة حمير تنهق معاً ، على نغمة ( الجازبند ) نهيقاً مقلوباً ، كأنه صراخ الجن في الأودية المسحورة ، أو نواح الردة في قعر الجحيم ، أو كأنه الموسيقى الفرنجية ... بشعر لا تفهم له وزناً ولا قافية ولا معنى ولا تجد فيه طرباً ولا متعة ولا لذة ، فكأنه شعر بشر فارس ...

فلما اقترب مني لم أجد أحسن من الفرار ، فنزلت من الترام عند الشارع الذي كان اسمه أيام الاحتلال « شارع مستشفى اللادي كرومر » ، وكنت أنا المصري الأصل ، الدمشقي المولد والبلد ، أتألم وأتول ما ذا يكون لهذه التسمية من ألم في نفوس المصريين أصلا ومولداً وبلداً ، وهي تذكرهم بأعدى عدو لهم ، وتمنّ عليهم بمستشفى أنشأته زوجته ببعض ما سرقت من مال مصر ، مع ما أصيبت به مصر على يد زوجها وقومه ، من ذهاب الأنفس والأموال ، ومن ضياع الحرية وهي أعز على الأبيّ من النفس والمال ، وأوثر أن نموت في العراء ( إن لم يكن إلا هذا المستشفى ) ، على أن نشفى فيه ، لأن شفاء أجسامنا فيه ، يمرض وطنيتنا ، بمحبة هذه ( اللادي ) وذكرها بالخير ، وعرفان الجميل

(1) وقفه ولا يقال أوقفه .

(2) ولا يخلو الترام لحظة من سائل

لها . فلما تنبهت مصر ، وذهبت تخطب أهل الأرض من فوق منبر مجلس الأمن ، تعرفهم ظلم الإنكليز إياها ، وعدوانهم عليها ، رفع الشباب هذه اللوحة ووضعوا مكانها لوحة سمّوه فيها « شارع دنشواى » ، وأشهد لقد كانت تسمية عبقرية ، وكان رداً بارعاً ، وكان جواباً لا يصدر إلا عن إلهام ..

ووجهت « النظار » إلى هذه اللوحة الجديدة ، أمتع بها روحي ، وأنعش نفسي ، فلم أجدها ، ووجدت اللوحة القديمة قد جددت ، فسحبت « النظار » ونظرت فلم أر غيرها ، فرفعته عن عيني ونظرت ، فإذا أنا أجد اللوحة القديمة قد جددت حقاً ...

لما ذا ؟ هل عادت أيام الاحتلال ؟ !

ورفعت « النظار » عن عيني لئلا أسقط في حفرة ، أو أصدم أحداً ، حتى دخلنا المسجد ، فقلت : أغمه لحظة ، علّي أرى في المسجد ما يسر ويفرح بعد تلك المحزنات ، وكانت الصلاة قد اقتربت ، والمسجد لبعده ، ولازدحام المساجد من حوله ، كأنه خالٍ فما فيه إلا أربعة صفوف ، ونظرت فرأيت ثلاث فتيات سوافر كسائر نساء مصر ، شعرهن يموج على أكتافهن ، وأذرعهن بارزات كلها من الكم الياباني ( الجاپونيز ) الذي يبدي ما تحت الإبط لكل ذي عينين ، والسيقان مكشوفات لا جوارب تصعد لسترها ، ولا ثوب ينزل لتغطيتها ، ومعهن أمهن ترتدي هذه الملاءة ذات البرقع الذي لا يستر من الوجه إلا مداخل النفس من الأنف فقط ، ويظهر الباقي كله ... وأسرعت الأم وبناتها إلى حوض الماء يتوضأن ، ويعددن أرجلهن لغسلها ، فلا يبقى مستوراً إلا ... الذي لم يكشف ... ثم يقفن هكذا للصلاة .. وفي المسجد مشايخ ، رأوهن فلم يكلمهن أحد منهم ، والخطيب رآهن فلم يعرض لهن ، فنزعت « النظار » وأغمضت عينيّ ، وحاولت أن أساهن وأتوجه إلى الصلاة ، فلم أستطع ، لأن صورتهن لا تزال ( أقول الحق ) أمام عيني . فإذا كن يلحقننا حتى إلى المسجد ، فكيف نفرُّ يا قوم منهن ؟ وكيف يصنع الشاب العزَب ليتقي إغراءهنّ ؟

ألم يخطر على بال أحد من العلماء ، والآباء ، هذا السؤال ؟ !

ورجعنا و « النظار » على عيني ، ولكنه أخذ يكذب ويشوّه الحقائق ، فيريني خياماً من القماش في أول شارع الخديوي اسماعيل ، وعليها لوحة تقول : إن هذه الخيام ( إدارة تنظيم عمارة المدن ) ...

فأقول : ينظمون عمارة المدن ، ولا يستطيعون عمارة حجرتين من اللبن والخشب ؟ هذا لا يمكن ... وأهم بطرح النظار ، ثم أذكر أن هذا ممكن جداً في الشرق !

أليس يأمر الناس بالتقوى من ليس تقياً ، ويدرّس البلاغة من ليس بليغاً ، ويقود الأمة من يحتاج إلى من يقوده ، ويعطي الأشياء فاقدها ، ويولي الأمور غير أهلها ؟ !

وتابع « النظار » الكذب ، حتى إذا وصل إلى دار المفوضية السورية ، وهي أفخم من أختيها : الأمريكية والروسية ! ! زاغ « النظار » عن كل ما في الدار ، واستقر على « عقد الإيجار » ، فأراني فيه رقم (٣٠٠) جنيه في الشهر ، ثم ذهب بي إلى دمشق ، فبصّرني بآلاف التلاميذ يزدحمون كل سنة على أبواب المدارس ، ثم يرتدون عنها لأنها لا تتسع لهم ، وليس عند الوزارة ما تستأجر به دوراً جديدة ، لأن أجرة الدار (٣٠٠) جنيه في السنة ! ثم دار بي على المفوضيات السورية في آفاق الأرض ليريني ...

ولكني أغمضت عيني فلم أنظر ، لأن هذا كذب ظاهر ، ونحن أعقل من أن نؤثر الظاهر على الجواهر ، والتزاويق على الحقائق ، والخارجية على المعارف ، وثوب العرس على العروس ! ونحن أعقل من أن نشتري ( كراقتة ) بخمسة جنيهات ، ونمشي بلا سراويل !

وسرت ... فإذا « النظار » يريني « كذبة » أشنع وأبشع : إعلانات ، في كل مكان ، وكل شارع ، أن الإخوان المسلمين سيمثلون رواية الهجرة ، على مسرح الأزبكية ...

كذبة قطعاً ، وإلا فهل استحالت دعوة الإخوان ، وهجرة الرسول ، إلى مسرح وتياترو ؟ ومن يمثلون ؟ النبي والصديق وعلي ؟ أهذه آخرتها ؟

جمعية الشبان المسلمين ، مثّلت مع زوزو نبيل ، وسمّتها ممثلة المسرح الإسلامي ! وجماعة الإخوان تنزل الصحابة إلى تياترو الأزبكية . . فهل تنشر مجلة الأزهر صورة امرأة عارية لتكمل الرواية ؟ وهل يوضع في جامع الكيخيا أو كسترا أفرنجية ، وفي مسجد الحسين تخت شرقي ؟ !

* * *

لا ... خذ « منظارك » يا أستاذ محمود ... حسبي ما رأيت !

( القاهرة ) علي الطنطاوي